**الباحث في الميدان: مشاركاً وملاحظاً ومدوناً للمذكرات الميدانية**

يسعى الباحثون الأثنوجرافيون الى ان يقدموا – في نهاية عملهم – وصفاً لما شاهدوه، وسمعوه، وعايشوه في الميدان. ولكنّا نجد ان الباحثين المختلفين – بل ونفس الباحث في مختلف مراحل حياته – يحولون تلك الخبرات والملاحظات الى نصوص مكتوبة بطرق شتى. فبعضهم يغالي في الانغماس في الانشطة المحلية وفي معايشة الآخرين حياتهم، فيؤجلون عامدين الإنشغال بمهمة اعداد تسجيل مدون لتلك الاحداث والخبرات. وفي الميدان يقرر الباحث لنفسه: أين يذهب، وماذا يشاهد، وعما يطرح أسئلته، وماذا يقول ... الخ، بحيث يستطيع ان يعايش معايشة كاملة تلك الحياة الاخرى بكل اهتماماتها. من هنا قد يشارك في بعض الاحداث دون حرص كبير – او دون حرص اطلاقاً – على ان "يدون" ما يراه، او حتى "يلاحظه" بطريقة محايدة فيها انفصال عما يجري، ولو ان الباحث الأثنوجرافي الذي يعيش في ميدان البحث – وليس في مجرد زيارة – خاصة في احدى الثقافات غير الغربية حيث لا تكون له ألفة باللغة وبإيقاع الحياة اليومية؛ هذا الباحث لا يكون أمامه سوى المشاركة بشكل كامل فيما يدور أمامه من احداث، مرجئاً بذلك كل انشغال بالكتابة في الميدان بشكل فوري. وقد تجد الباحثة المرأة التي تدرس اوضاع المرأة المحلية في افريقيا مثلاً؛ قد تجد نفسها تساعد النساء في اعداد الخضروات للطهي، وتشترك في رعاية اطفال الاسرة الصغار، مما لا يترك لها فسحة كافية من الوقت لإعداد مذكرات ميدانية مفصلة. ولكنها مع ذلك تكتسب من خلال تلك المشاركة القدرة على ان ترى بكل وضوح، كيف تؤدي النساء اعمالهن معاً، ويتسامرن اثناء ذلك، ويعتنين بالأطفال. ولعلها يمكن ان تلاحظ فيما بعد، ومن خلال تأملها لما عايشته من خبرات، ما جرى عليها هي نفسها من تغيرات غير ظاهرة بسبب معايشتها أولئك النسوة ومشاركتهن ما يقمن به من أنشطة.

والباحثون الذين يتبعون هذا الاسلوب، يعلّون من قدر الارتباط بشكل طبيعي بأفراد مجتمع الدراسة، فهم يركزون جهودهم في الواقع على الوقوف – بشكل كلي ومتعمق – على ما يفعله أولئك الناس في الحقيقية. من هنا يؤجلون أي استغراق في كتابة المذكرات الميدانية (وفي الحالات المتطرفة يقللون من هذه الكتابة الى ادنى حد، او يتجنبوها كلياً) باعتبار ان الانشغال بهذا يمكن ان يضعف الافكار والرؤى المعاشة التي يمكن ان يتوصلوا الى معرفتها وفهمها، من خلال الانغماس في عالم اجتماعي آخر. وفي مرحلة لاحقة من العمل يتجه الباحث الأثنوجرافي الى الاطلاع بمهمة استدعاء خبراته وتأملها تمهيداً للكتابة عنها.

ولكن الباحث الميداني يمكن – ايضاً – ان يشارك في الاحداث التي تدور امامه بطرق تنطوي على الكتابة بشكل مباشر وفوري. ففي مثل هذه الحالات يحرص الباحث على "الحصول على مكان مناسب" يستطيع منه ان يلاحظ الاحداث الطريفة والمهمة بوضوح بحيث يستطيع ان يسجلها على الورق تفصيلاً. ونتيجة لهذا، تكون المشاركة في الاحداث التي تتم بشكل طبيعي موجهة بوضوح نحو كتابة المذكرات الميدانية. وفي الحالات المتطرفة من هذا التوجه يقوم الباحث الميداني واعياً بملاحظة الاحداث والوقائع التي يتحتم وصفها لأغراض البحث، ولهذا يتخذ موقفاً من تلك الاحداث يمكّنه من ان يلاحظ ويكتب. وقد يتبنى موقفاً واضحاً من الاحداث مضمونه: "ما هي الاشياء المهمة التي يمكت تذكرها والكتابة عنها لاحقاً".

ولكل اسوب من أسلوبي المشاركة نقاط قوته ونقاط ضعفه. فالأسلوب الأول يتيح فرصة الانغماس الشديد في الاحداث اليومية والاهتمامات العادية، فيزيد بذلك درجة انفتاح الباحث على اساليب حياة الآخرين. أما الأسلوب الثاني فقد يمكننا من تسجيل تفاصيل تلك الحياة بكل تفاصيلها وعلى نحوٍ شديد القرب من لحظة وقوع الحدث. ونجد في الممارسة البحثية ان معظم الباحثين الميدانيين يستخدمون كلا الاسلوبين في هذه اللحظة او تلك. حيث نجدهم في بعض الاحيان يشاركون فيما يدور أمامهم دون تفكير في الكتابة الفورية عما يحدث، واحياناً اخرى يركزون على بعض الاحداث لكي يكتبوا عنها. بل ان الباحث قد ينتقل من اسلوب الى آخر حسب مجرى الاحداث التي تدور أمامه. ففي بعض المواقف الاجتماعية التي يجد الباحث نفسه مشاركاً فيها، قد يتبين دلالة نظرية مهمة لإحدى الخبرات او الممارسات اليومية العادية. وعلى العكس قد يجد أحد الباحثين القائم بملاحظة غير مندمجة مركزاً على الاهتمام بالكتابة وتسجيل ما يجري؛ قد يجد نفسه فجأة مدفوعاً دفعاً الى مركز ذلك النشاط مباشرةً.

وفي كلا الأسلوبين يكتب الباحثون مذكراتهم الميدانية على نحو وثيق القرب – على نحو او آخر – من الاحداث التي يعايشها او يشارك فيها؛ وذلك تأسياً بروح الأثنوجرافي الذي قال: "الانثروبولوجيون هم أولئك الذين يكتبون الموضوعات في نهاية كل يوم". (Jackson, 1990, p: 15).

وفي طريقة تجميع الخبرات والحرص عليها، يتم إرجاء الكتابة لبضع ساعات او حتى لعدة أيام، الى ما بعد ان يترك الباحث الميدان، ويجلس الى دفتر اوراقه او الى كمبيوتره ليكتب عن الاحداث المهمة التي عايشها، وذلك اعتماداً على ذاكرته وحدها. أما في اسلوب المشاركة من أجل الكتابة، فإن مهمة الكتابة – او على الأقل الرغبة في الكتابة – تبدأ مبكراً عن ذلك. فهي تبدأ مع الباحث وهو في قلب الميدان، ربما في قلب المحادثات والسلوكيات التي ينوي الكتابة عنها. وقد لا يكتفي الباحث بعمل بعض المذكرات الفكرية او "المذكرات الذهنية" لكي يضمن بعض الاحداث في مذكراته المفصّلة، ولكنه قد يعمد كذلك الى تدوين بعض الكلمات او الجمل المختصرة - في صورة ملاحظات موجزة او مذكرات أولية – لاستخدامها عند كتابة المذكرات المفصّلة في النهاية.

كما نلاحظ ايضاً، ان الباحثين في كلا الحالتين يهتمون اكبر الاهتمام بنوعية العلاقات التي يقيمونها مع الناس الذين يودون التعرف عليهم وفهمهم. وبالنسبة للباحثين الذين يفضلون الاقتراب من خبرات الآخرين وعوالمهم وأنشطتهم بطريقة طبيعية وصريحة، نجدهم يحرصون على عدم اقحام الكتابة على هذه العلاقات حتى لا ### على مجراها. وهم بذلك لا يكتفون بالحرص على عدم الانفصال عن عالم الآخرين وخبراتهم وإنما يفعلونه اعتقاداً منهم ان التزامات عمليات الكتابة والبحث يمكن ان تخلق احساساً بخيانة أولئك الذين عايشوهم وشاركوهم كل خصوصيات حياتهم.

في مقابل ذلك، نلاحظ ان الباحثين الذين يشاركون لكي يكتبوا، يتابعون ### عملهم البحثية ويمارسونها صراحة كمكون أساسي من مكونات علاقاتهم مع أفراد مجتمع بحثهم. غير ان هؤلاء الباحثين لا يعدمون لحظات يعانون فيها محنة القلق ما إذا كان بوسعهم ان يضمنوا مذكراتهم الميدانية وقائع من حياة أولئك الناس طابع الخصوصية او يمكن ان تحط من قدرهم. كما ان الباحثين من هذا الفريق غالباً ما يصبحون شديدي الحساسية تجاه ما إذا كان موقف الكتابة وعملية الكتابة يمكن ان يبدو واضحاً للآخرين فيؤثر على طبيعة علاقاتهم بأفراد مجتمع بحثهم.

وسنعمد في الأجزاء التالية من هذا الفصل الى التركيز على أسلوب البحث الميداني القائم على المشاركة من أجل الكتابة، وهو الأسلوب الذي يواجه قضايا الكتابة الفورية والمباشرة في الميدان. وهكذا يطرح هذا الأسلوب بقوة، قضية علاقات التدخل بين الكتابة، والمشاركة، والملاحظة كوسيلة لفهم أي نمط حياة مختلف: فهذا الاتجاه يركز على أهمية تعلم كيف تلاحظ لكي تكتب، كما يسلم بأن المشاهدة نفسها تتشكل وتتأثر بتقدير الباحث لما سيكتبه وكيف سيكتبه. وفي سياق معالجتنا لتلك القضايا سوف نتأمل في البداية الخيارات التي يواجهها الباحثون في الميدان عندما يكونون بصدد اتخاذ قرار عن كيف يكتبون الملاحظات في الميدان، وأين يكتبونها، ومتى ثم نحاول في فقرة تالية على ذلك عرض بعض المقترحات حول الأمور التي يتعين ملاحظتها عندما يشارك الباحث وعينه على كتابة المذكرات الميدانية. بعدها نستعرض عدداً من نماذج الملاحظات الميدانية التي كتبت في سياقات ميدانية مختلفة، ونناقش – في ثنايا ذلك – بعض الاعتبارات التي يمكن ان توجه عملية تدوين الملاحظات.